﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

ويعطى سبحانه بعد ذلك لهم الرزق ، والعافية ، والغنى ؛ لأن الحق إذا أراد أن يأخذ جباراً أخذ عزيز مقتدر فهو يمهله ، ويرخى له العِنان ليتجبر ـ كفرعون ـ من أجل أن يأخذه بغتة ، وكأنه يسقط من أعلى ، فيعليه ويعليه من أجل أن ينزل به ـ كما يقولون ـ على جذور رقبته : ﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ﴾ .

(عَفَوْا) أى كثروا عدداً ومالاً وقوة أى أنه ما أخذهم سبحانه بالبأساء والضراء إلاّ وكان القصد منها أن يلفتهم إليه ، فلم يلتفتوا ، فيمدهم ويعطى لهم العافية وما يسرّهم ، ثم يصيبهم بالعذاب بغتة .

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى بعد أن تكلم على خلافة الإنسان فى الأرض ، وأنه أمده بكل ما تقوم به حياته ، وأمده بالقيم بواسطة مناهج السماء ، وأنزل المنهج مبينا ما أحل ، وما حرم بعد أن كانوا يحلون ما حرم الله ، ويحرمون ما أحل الله ، فبيّن لهم الحق أن الذى خلق الخلق عالم بما يصلحهم فأحله ، وعالم بما يفسدهم فحرّمه ، فليس لكم أن تقترحوا على الله حلالاً ، ولا حراماً ، ولكن بعض المشككين فى منهج الله قالوا ـ ومازالوا يقولون ـ : إذا كان الله قد أحل شيئاً وحرم شيئاً فلماذا خلق ما حرم ؟ ونقول : لقد خلق سبحانه كل شىء لحكمة قد تكون لغير الطعام والشراب والكسوة ، فبعض الأشياء يكون مخلوقاً لمهمة وإن لم تكن مباشرة لك ؛ فالبترول مثلاً مخلوق لمهمة أن يوجد طاقة ، لذلك لا نشربه .

والخنزير مخلوق لحكمة لا نعلمها نحن ، وإنما يعلمها من خلق ، لأنه من

الجائز أن يكون أداة لالتقاط الميكروبات التى تنشأ من عفن الأشياء التى يستعملها الناس فى حياتهم، إذن فكل شىء مخلوق لحكمة، فلا تخرج أنت حكمة الأشياء من غير مراد خالقها؛ لأن صانع الصنعة هو الذى يحدد الشىء الذى يوجد وينشىء القوة لها. ونحن نعلم - مثلاً - أن أنواع الوقود كثيرة، فهناك «البنزين» النقى جداً ويرقمونه برقم (١) وهو مخصص للطائرة، ووقود السيارة وهو «البنزين» رقم (٢). فإذا استخدمنا وقود ماكينة وآلة بدل ماكينة أخرى أفسدناها. كذلك خلق الله الإنسان وسخر له كل المخلوقات وأوضح: هذا يصلح لك مباشرة، وهذا مخلوق ليخدمك خدمة غير مباشرة فدعه فى مكانه.

وبعد أن عرض الحق سبحانه وتعالى مواقف الجنة، ومواقف النار، ومواقف أصحاب الأعراف الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم؛ وبعد أن بين المنهج كله أراد أن يبين أن ذلك ليس نظرياً، وإنما هو واقع كونى أيضاً. ففرق بين الشىء يقال نظرا، والشىء يقع واقعاً، فقص علينا قصص الأنبياء حين أرسلهم إلى أقوامهم، فمن كذب بالرسل أخذه الله أخذ عزيز مقتدر بواقع يشهده الجميع؛ فذكر نوحا مع قومه، وذكر عاداً وأخاهم هوداً، وذكر ثمود وأخاهم صالحاً، ومدين وأخاهم شعيباً، وقوم لوط وسيدنا لوطا. وبين ماحدث للمؤمنين بالنجاة، وماحدث للكافرين بالعطب والإذلال، ويوضح الحق سبحانه وتعالى: أننى آخذ الناس بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون، لأن الإنسان مخلوق أفاض الله عليه من صفات جلاله، ومن صفات جماله الشىء الكثير، فالله قوى، وأعطى الإنسان من قوته. والله غنى وأعطى الإنسان من غناه، والله حكيم وأعطى الإنسان من حكمته، والله عليم وأعطى الإنسان من علمه.

وإذا أردت أن تستوعب مايقربك إلى كمال العلم فى الله، فانظر ماعلمه لكل خلق الله. ومع ذلك فعلمهم ناقص. ويردون إلى العلم الذاتى فى الحق سبحانه وتعالى، وربما غر الإنسان بالأسباب وهى تستجيب له، فهو يحرث ويبذر ويروى، وإذا بالأرض تعطيه أكلها. وهو يصنع الشىء فيستجيب له. كل ذلك قد يغريه بأن الأشياء استجابت لذاته فيذكره الله: أن اذكر من ذللها لك.

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة العلق]

وساعة ما يجد الإنسان أن كل الأسباب مواتية له فعليه أن يذكر الله . إن الإنسان بمجرد إرادة أن يقوم من مكانه فهو يقوم . وبمجرد إرادة أن يصفع أحداً فهو يصفعه ؛ لأن الأبعاض التى فى الإنسان خاضعة لمراده ، فإذا كانت أبعاضك خاضعة لمراداتك أنت ، وأنت مخلوق ، فكيف لا يكون الكون كله مراداً للحق بالإرادة ؟ فإذا استغنى الإنسان بالأسباب ، فالحق يلفته إليه . فالقادر الذى كان بفتوته يفعل . يسلب الله منه القدرة بالمرض ؛ فيمد يده ليساعده إنسان على القيام. والذى اعتز بشىء يذله الله بأشياء .لماذا ؟ حتى يلفته إلى المسبِّب ، فلا يُفتن بالأسباب .

ويدع لنا الحق سبحانه وتعالى فى كونه عجائب ، ونجد العالم وقد تقدم الآن تقدماً فضائيًا واسعاً ، واستطاع الإنسان أن يكتشف من أسرار كون الله ما شاء ، ولكن الحق يصنع لهم أحياناً أشياء تدلهم على أنهم لا يزالون عاجزين . فبعد أن تكتمل لهم صناعة الآلات المتقدمة يكتشفون خطأ واحداً يفسد الآلة ويحطمها ، وتهب زوبعة أو إعصار يدمر كل شىء ، أو يشتعل حريق هائل . فهل يريد الله بكونه فساداً وقد خلقه بالصلاح ؟ لا ، إنه يريد أن يلفتنا إلى ألا نغتر بما أوتينا من أسباب . فالذين عملوا « الرادار » لكى يبين لهم الحدث قبل أن يقع ، يفاجئهم ربنا ـ أحياناً ـ بأشياء تعطل عمل « الرادار » ، فيعرفون أنهم مازالوا ناقصى علم .

إذن فالأخذ بالبأساء ، والأخذ بالضراء ، سنة كونية ليظل الإنسان فاهماً وعالماً أنه خليفة فى الأرض لله . وفساد الإنسان أن يعلم أنه أصيل فى الكون ، فلو كنت أصيلاً فى الكون فحافظ على نفسك فى الكون ولا تفارقه بالموت . وإن كنت أصيلاً فى الكون فذلل الكون لمراداتك . ولن تستطيع ؛ لأن هناك طبائع فى الكون تتمرد عليك ، ولا تقدر عليها أبداً .

وترى أكثر من مفاعل ذرى ينفجر بعد إحكامه وضبطه لماذا ؟! ليدل على طلاقة القدرة وأن يد الله فوق أيديهم ، إذن فأخذ الناس بالبأساء والضراء ، وبالشىء الذى نقول إنه شر إنما هو طلب اعتدال للإنسان الخليفة ، حتى إذا اغتر يرده الله سبحانه وتعالى من الأسباب إلى المسبِّب . وحين يأخذ الله قوماً بالبأساء التى تصيب الإنسان فى غير ذاته : مال يضيع ، ولد يفقد ، بيت يهدم ، أو يأخذهم بالضراء

وهى الأشياء التى تصيب الإنسان فى ذاته ، فذلك ليسلب منهم أبهة الكبرياء ، فلا يجدون ملجأ إلا أن يخضعوا لرب الأرض والسماء ، ولكى يتضرعوا إلى الله ، ومعنى التضرع - كما عرفنا - إظهار الذلة لله . وإذا لم يُجْدِ وينفع فيهم هذا ، وقالوا : لا ، إن البأساء والضراء مجرد سنن كونية ، وقد تأتى للناس فى أى زمان أو مكان . نقول لهم : صحيح البأساء والضراء سنن كونية من مكوّن أعلى من الكون، فإذا لم يرتدعوا بالبأساء والضراء ويرجعوا إلى ربهم ويتوبوا إليه يبتليهم الله بالنعماء ، فهو القائل :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فالمجتمعات حين تبتعد عن منهج السماء نجد الحق ينتقم منهم انتقاماً يناسب جرمهم ، ولو أنه أخذهم على حالهم المتواضع فلن تكون الضربة قوية ؛ لذلك يوسع عليهم فى كل شىء حتى إذا ما سلب منهم وأخذهم بغتة وفجأة تكون الضربة قوية قاصمة ويصيبهم اليأس والحسرة .

وقديماً قلنا تعبيراً ريفيًا هو : إن الإنسان إن أراد أن يوقع بآخر لا يوقعه من على حصيرة ، إنما يوقعه من مكان عال . وربنا يعطى للمنكرين الكثير ويمدهم فى طغيانهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وقد دلت وقائع الحياة على هذا ، ورأينا أكثر من ظالم وجبار فى الأرض والحق يملى له فى العلو ويمد له فى هذه الأسباب ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر ، ولو بواسطة حارسه .

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقد يضبط الإنسان أشياء تُعْلمه بواقع الشر فى مستقبله . مثلها مثل « الرادار » الذى يكشف لنا أى خطر فى الأفق قبل أن يأتى ، وحين يقول سبحانه : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أى ليس عندهم حساب ولا مقاييس تدلهم على أن شرًا يحيق بهم .

وأنت لو نظرت إلى هذه المسألة لوجدت الإنسان بعقله وفكره الذى لم يسلك فيه طريق الله بل سلك فيه السبيل غير الممنهج بمنهج الله ،وبينما لا يلتفت الانسان إلى مجىء الكارثة ، ويتساءل : لماذا تجرى هذه الحيوانات ؟ ! إنه فى هذه الحالة يكون أقل من الحيوانات ؛ لأن الحيوان من واقع الأحداث فى بلد تحدث فيه الزلازل يكون أول خارج من منطقة الزلزال ، إن الله قد سلبه هذه المعرفة حتى تتمكن منه الضربة ، إننا نجد الحمار يجرى ليغادر مكان الزلزال ، بينما يظل الإنسان واقفاً حتى يحيق ويحيط به الخطر ، فأى إحساس وأى استشعار عند الحيوان ؟ إنه استشعار غريزى خلقه ربه فيه ؛ لأنه سلب منه التعقل فأعطاه حكمة الغرائز .

ومادام الحق قد نبه الإنسان بالبأساء فلم يلتفت ، وبالضراء فلم ينتبه إلى المنهج ؛ لذلك يأتى له الحق ويمد له بالطغيان .

لكن أهل الإيمان أمرهم يختلف ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

أى أنهم لو آمنوا بالموجود الأعلى ، واتقوا باتباع منهجه أمراً ونهيًا تسلم آلاتهم،لأن الصانع من البشر حين يصنع آلة من الآلات،يحدد ويبيّن الغاية من الآلة قبل أن يبتكرها ، ويصمم لها أسلوب استخدام معين ، وقانون صيانة خاصا لتؤدى مهمتها ، فمابالنا بمن خلق الإنسان ، إذن فالبشر إذا تركوا رب الإنسان يضع منهج صيانة الإنسان لعاش هذا الإنسان فى كل خير ، وسبحانه وتعالى أوضح أنهم إن اتقوا ، تأت لهم بركات من السماء والأرض ، فإن أردتها بركات مادية تجدها فى المطر الذى ينزل من أعلى ، وبركات من الأرض مثل النبات ، وكذلك كنوزها التى تستنبط منها الكماليات المرادة فى الحياة .

وما معنى البركة ؟ . البركة هى أن يعطى الموجودُ فوق ما يتطلبه حجمه ؛ كواحد مرتبه خمسون جنيهاً ونجده يعيش هو وأولاده فى رضا وسعادة ، ودون ضيق ، فنتساءل : كيف يعيش ؟ ويجيبك : إنها البركة . وللبركة تفسير كونى لأن الناس دائماً ـ كما قلنا سابقاً ـ ينظرون فى وارداتهم إلى رزق الإيجاب ، ويغفلون رزق السلب . رزق الإيجاب أن يجعل سبحانه دخلك آلاف الجنيهات ولكنك قد تحتاج إلى أضعافهم ، ورزق السلب يجعل دخلك مائة جنيه ويسلب عنك مصارف كثيرة ، كأن يمنحك العافية فلا تحتاج إلى أجر طبيب أو نفقة علاج .

إذن فقوله : ﴿ بركات من السماء والأرض ﴾ أى أن يعطى الحق سبحانه وتعالى من القليل الكثير فى الرزق الحلال ، ويمحق الكثير الذى جاء من الحرام كالربا ، ولذلك سمى المال الذى نخرجه عن المال الزائد عن الحاجة سماه زكاة مع أن الزكاة فى ظاهرها نقص ، فحين تملك مائة جنيه وتخرج منها جنيهين ونصف الجنيه يكون قد نقص مالك فى الظاهر . وإن أقرضت أحداً بالربا مائة جنيه فأنت تأخذها منه مائة وعشرة ، لكن الحق سمى النقص فى الأولى نماء وزكاة ، وسمى الزيادة فى الثانية محقا وسحتاً ، وسبحانه قابض باسط .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إذن فلو أخذ الإنسان قانون صيانته من خالقه لاستقامت له كل الأمور ، لكن الإنسان قد لا يفعل ذلك . ويقول الحق : ﴿ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ .

وهكذا نعلم أن الأخذ ليس عملية جبروت من الخالق ، وإنما هى عدالة منه سبحانه ؛ لأن الحق لو لم يؤاخذ المفسدين ، فماذا يقول غير المفسدين ؟ . سيقول الواحد منهم : مادمنا قد استوينا والمفسدين ، وحالة المفسدين تسير على ما يرام ، إذن فلأفسد أنا أيضاً . وذلك يغرى غير المفسد بأن يفسد ، ويعطى لنفسه راحتها وشهواتها ، لكن حين يأخذ الله المفسدين بما كانوا يكسبون ، يعلم غير المفسد أن سوء المصير للمفسد واضح ، فيحفظ نفسه من الزلل .

كان القياس أنه يقول سبحانه : بما كانوا يكتسبون ، لأن مسألة الحرام تتطلب انفعالات شتى ، وضربنا المثل من قبل بأن إنساناً يجلس مع زوجته ، وينظر إلى جمالها ويملأ عينيه منها ، لكن إن جلس مع أجنبية وأراد أن يغازلها ليتمتع بحسنها ، فهو يناور ويتحايل ، وتتضارب ملكاته بين انفعالات شتى ، وهو يختلف في ذلك عن صاحب الحلال الذى تتناسق ملكاته وهو يستمتع بما أحل له الله ، ولكنْ هؤلاء المفسدون تدربوا على الفساد فصار دربة تقرب من الملكة فقال فيهم الحق : إنهم يكسبون الفساد ، ولا يجدون فى ارتكابه عنتا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

ونلحظ وجود « همزة استفهام » و « فاء تعقيب » فى قوله الحق : ﴿ أفأمن ﴾ وهذا يعنى أن هناك معطوفاً ومعطوفاً عليه ، ثم دخل عليهما الاستفهام ، أى أنهم فعلوا وصنعوا من الكفر والعصيان فأخذناهم بغتة ، أبعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا وعذابنا بياتا أو ضحى كما صنع بمن كان قبلهم من الأمم السابقة ؟ هم إذن لم يتذكروا ما حدث للأمم السابقة من العذاب والدمار .

ويوضح الحق أن الذين كذبوا من أهل القرى ، هل استطاعوا تأمين أنفسهم فلا يأتيهم العذاب بغتة كما أتى قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب ؟ والبأس هو الشدة التى يؤاخذ بها الحق سبحانه الأمم حين يعزفون عن منهجه . وما الذى جعلهم يأمنون على أنفسهم أن تنزل بهم أهوال كالتى نزلت بمن سبقهم من الأمم .

وحين يتكلم الحق عن الأحداث فهو يتكلم عما تتطلبه الأحداث من زمان

ومكان ؛ لأن كل حدث لابد له من زمن ولابد له من مكان ، ولا يوجد حدث بلا زمان ولا مكان ، والمكان هنا هو القرى التى يعيش فيها أهلها ، والزمان هو ما سوف يأتى فيه البأس ، وهو قد يأتى لهم بياتاً وهم نائمون ، أو يأتى لهم ضحى وهم يلعبون ، وهذه تعابير إلهية ، والإنسان إذا ما كان فى مواجهة الشمس فالدنيا تكون بالنسبة له نهاراً . والمقابل له يكون الليل . وقد يجىء البأس على أهل قرية نهاراً ، أو ليلاً فى أى وقت من دورة الزمن ، ونعلم أن كل لحظة من اللحظات للشمس تكون لمكان ما فى الأرض شروقاً ، وتكون لمكان آخر غروباً ، وفى كل لحظة من اللحظات يبدأ يوم ويبدأ ليل ، إذن أنت لا تأمن يا صاحب النهار أن يأتى البأس ليلاً أو نهاراً ، وأنت يا صاحب الليل لا تأمن أن يكون البأس نهاراً أو ليلاً .

وأهل القرى هم الذين قال الله فيهم :

﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة الأعراف)

وماداموا قد كذبوا فمعنى ذلك أنهم لم يؤمنوا برسول مبلغ عن الله ، وتبعاً لذلك لم يؤمنوا بمنهج يحدد قانون حركتهم بـ« افعل » و« لا تفعل » .

إذن فنهارهم هو حركة غير مجدية ، وغير نافعة ، بل هى لعب فى الحياة الدنيا ، وليلهم نوم وفقد للحركة ، أو عبث ومجون وانحراف ، وكل من يسير على غير منهج الله يقضى ليله نائماً أو لاهيًا عاصيًا ، ونهاره لاعباً ؛ لأن عمله مهما عظم ، ليس له مقابل فى الآخرة من الجزاء الحسن .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

و« الأمن » هو الاطمئنان إلى قضية لا تثير مخاوف ولا متاعب ، ويقال: فلان

« آمن » ؛ أى لا يوجد ما يكدر حياته . والحق يقول : ﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾ ونحن نسمع بعض الكلمات حين ينسبها الله لنفسه نستعظمها ، ونقول : وهل يمكر ربنا ؟ لأننا ننظر إلى المكر كعملية لا تليق . . وهنا نقول : انتبه إلى أن القرآن قد قال :

﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

إذن ففيه مكر خير ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة آل عمران)

والمكر أصله الالتفاف . وحين نذهب إلى حديقة أو غابة نجد الشجر ملتف الأغصان وكأنه مجدول بحيث لا تستطيع أن تنسب ورقة فى أعلى إلى غصن معين ؛ لأن الأغصان ملفوفة بعضها على بعض ، وكذلك نرى هذا الالتفاف فى النباتات المتسلقة ونجد أغصانها مجدولة كالحبل .

إذن فالمكر مؤداه أن تلف المسائل ، فلا تجعلها واضحة . ولكى تتمكن من خصمك فأنت تبيت له أمراً لا يفطن إليه ، وإذا كان الإنسان من البشر حين يبيت لأخيه شرًّا ، ويفتنه فتناً يُعمى عليه وجه الحق وليس عند الإنسان العلم الواسع القوى الذى يمكر به على كل من أمامه من خصوم لأنهم سيمكرون له أيضاً .

وإذا كان هناك مكر وتبييت لا يكتشفه أحد فهو مكر وتبييت الله لأهل الشر ، وهذا هو مكر الخير ؛ لأن الله يحمى الوجود من الشر وأهله بإهلاكهم .

﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهناك من يسأل : هل أمن الأنبياء مكر الله ؟ نقول نعم . لقد أمنوا مكر الله باصطفائهم للرسالة ، وهناك من يسأل : كيف إذن لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ؟!

نقول : لقد جاء فى منهج الرسل جميعاً أن الذى يأمن مكر الله هو الخاسر ؛ لأن الله هو القادر ، وهو الذى أنزل المنهج ليختار الإنسان به كسب الدنيا والآخرة إن عمل به ، وإن لم يعمل به يخسر طمأنينة الإيمان فى الدنيا وإن كسب فيها مالا أو جاها أو علماً ، ويخسر الآخرة أيضاً .

ويتابع سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

و « يهد » أى يبين للذين يرثون الأرض طريق الخير ، ومعنى ﴿ يرثون الأرض من بعد أهلها ﴾ أن الأرض كانت مملوكة لسواهم ، وهم جاءوا عقبهم . وحين يستقرىء الإنسان الوجود الحضارى فى الكون يجد أن كل حضارة جاءت على أنقاض حضارة ، وما فى يدك وملكك جاء على أنقاض ملك غيرك ، والذى يأتى على أنقاض الغير يسمى إرثاً ، ومادمتم قد رأيتم أنكم ورثتم عن غيركم كان يجب أن يظل فى بالكم أن غيركم سيرثكم .

إذن فالمسألة دُوَلٌ ، ويجب ألا يغتر الإنسان بموقع أو منصب ، ونحن نرى فى حياتنا من يحتل منصباً كبيراً ، ثم يُقال ويعزل عن منصبه ، أو يحال إلى التقاعد ويأتى آخر من بعده . ولذلك يقال : لو دامت لغيرك ما وصلت إليك . فإن كنت صاحب مكانة وقد أحسنت الدخول إلى وضعك وإلى جاهك ، وإلى منصبك ؛ فيجب أن تفطن وتتذكر الخروج قبل الدخول إلى هذا المنصب حتى لا يعز عليك فراقه يوماً .

واحذر أن تحسن الدخول فى أمر قبل أن تحاول أن تحسن الخروج منه .

واستمع إلى قول الشاعر فى هذا المعنى :

إن الأميرَ هو الذى يُمسى أميراً يوم عزلهْ
إن زال سلطان الإمارة لم يزل سلطانُ فضلِهْ

وحين يقول الحق : ﴿ أو لم يهد للذين يرثون الأرض ﴾ .

نلحظ أنه سبحانه لم يجعل المهديين هنا على وضع المفعول ، فلم يقل : أو لم يهد الذين ، بل قال : « يَهْد للذين » ، فما الحكمة فى ذلك ؟ . نعرف أن « الهداية » هى الدلالة على الطريق الموصل للغاية ، وقد تعود فائدته عليك ، أى أنك قد هَدَيْت غيرك لصالحك . وقد تكون الهداية وهى الدلالة على فعل الخير لأمر يعود على الذى هَدَى وعلى المَهْدِيّ معاً ، لكن إذا كانت الهداية لا تعود إلا لك أنت ، ولا تعود على مَن هداك ، أتشك فى هدايته لك ؟ لا ، إن من حقك أن تشك فى الهداية إذا كان هذا الأمر يعود على من هَدَى ، أو يعود أمرها على الاثنين ؛ ففى ذلك شبهة لمصلحة ، لكن إذا كان الأمر لا يعود على من يَهْدِى ويعود كله لمن يُهْدَى فليس فى ذلك أدنى شك .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى حديثه القدسى :

« .. يا عبادى لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المِخْيط إذا أُدْخِلَ البحر »[1] .

إذن فحين يهديكم الحق إلى الصراط المستقيم فما الذى يعود عليه سبحانه من صفات الكمال بهذا العمل ؟ لقد خلقكم بصفات الكمال فيه ، فلن ينشىء خلقه

(١) رواه مسلم ـ واللفظ له ـ ورواه الترمذى .

لكم صفة من صفات الكمال زائدة على ما هو له ، وهكذا نرى أن كل هداية راجعة إلى المَهْدِىّ . وبذلك يتأكد قوله : ﴿ يهد للذين يرثون الأرض ﴾ ما هو مصلحتهم .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) ﴾

(سورة الأعراف)

والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن المشيئة يقول : ﴿ لو نشاء ﴾ ويحدد أسباب المشيئة وهو قوله : ﴿ أصبناهم بذنوبهم ﴾ ، وهكذا نعلم أن المشيئة ليست مشيئة ربنا فقط لا ، بل هى أيضاً مشيئة العباد الذين ميزهم بالاختيار ، وسبحانه يقول :

﴿ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٣١ سورة الرعد)

وما الذى يمنعه سبحانه أن يشاء هداية الناس جميعاً ؟ . لا أحد يمنع الخالق ، ولكنه سبحانه خلق خلقاً مهديين بطبيعتهم ، لا قدرة لهم على المعصية وهم الملائكة ، وجعل سائر أجناس الأرض مسخرة مسبحة ، وذلك يثبت صفة القدرة ، فلا يستطيع أحد أن يخرج عن مراد الله ، ولكن هذا لا يعطى صفة المحبوبية للمشرع الأعلى ، ثم إنه ـ سبحانه ـ خلق خلقاً لهم اختيار فى أن يطيعوا وأن يعصوا .

فالمخـلوق الذى اختصه سبحانه بقدرة الاختيار فى أن يؤمن وأن يكفر ، وأن يطيع وأن يعصى ، ثم آمن يكون إيمانه دليلا على إثبات صفات المحبوبية للإله .

إذن المقهورون على الفعل أثبتوا القدرة ، والمختارون الفعل أثبتوا المحبوبية للمشروع الأعلى ، ويتابع سبحانه فى الآية نفسها :

﴿ أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة الأعراف)

ونلحظ أن الحق لم يقل أن لو نشاء أصبناهم لذنوبهم وذلك رحمة منه ، بل جعل العقاب بالذنوب التى يختارونها هم ، وكذلك جعل الطبع على القلوب نتيجة للاختيار . وسبق أن تكلمنا فى أول سورة البقرة . عن كلمة « الطبع » ؛ وهو الختم :

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة البقرة)

لأن القلوب وعاء اليقين الإيمانى ؛ فحين يملأ إنسان وعاء اليقين بالكفر ، فهذا يعنى أنه عشق الكفر وجعله عقيدة عنده ؛ لذلك يساعده الله على مراده ، وكأنه يقول له : أنا سأكون على مرادك ، ولذلك أطبع على قلبك فلا يخرج ما فيه من الكفر ، ولا يدخل فيه ما خرج منه من الإيمان الفطرى الذى خلق الله الناس عليه . لأنك أنت قد سَبَّقت ووضعت فى قلبك قضية يقينية على غير إيمان ؛ لأن أصول الإيمان أن تُخْرِج ما فى قلبك من أى اعتقاد ، ثم تستقبل الإيمان بالله ، ولكنك تستقبل الكفر وترجحه على الإيمان .

إن الله سبحانه لم يجعل لرجل من قلبين فى جوفه : قلب يؤمن ، وقلب لا يؤمن ، بل جعل للإنسان قلباً واحداً ، والقلب الواحد حيز ، والحيز ـ كما قلنا ـ لا تداخل للمحيَّز فيه ؛ فحين نأتى بزجاجة فارغة ونقول:إنها « فارغة » فالذى يدل على كذب هذه الكلمة أننا حين نضع فيها المياه تخرج منها فقاقيع الهواء ، وخروج فقاقيع الهواء هو الذى يسمح بدخول المياه فيها ، لأن الزجاجة ليست فارغة ، بل يخيل لنا ذلك ؛ لأن الهواء غير مرئى لنا . ولو كانت الزجاجة مفرغة من الهواء دون إعداد دقيق فى صناعتها لتلك المهمة لكان من الحتمى أن تنكسر . والقلب كذلك له حيز إن دخل فيه الإيمان بالله لا يسع الكفر ، وإن دخل فيه الكفر ـ والعياذ بالله لا يسع الإيمان ، والعاقل هو من يطرح القضيتين خارج القلب ، ثم يدرس هذه ويدرس تلك ، وما يراه مفيداً لحياته ولآخرته يسمح له بالدخول . أما أن تناقش قضية الإيمان بيقين قلبى بالكفر فهذه عملية لا تؤدى إلى نتيجة .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ

عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

(سورة الأعراف)

أى أو لم يتبيّن للذين يُستخلفون فى الأرض من بعد إهلاك الذين سبقوهم بما فعلوا من المعاصى والكفر فسار هؤلاء القوم سيرة من سبقهم وعملوا أعمالهم وعصوا ربهم أن لو نشاء فعلنا بهم من العذاب كما فعلنا بمن قبلهم وقوله : ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ أى السماع المؤدى إلى الاعتبار والاتعاظ فكأنهم لم يسمعوا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

هذا هو المراد فى سرد القصص بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أوضحه الحق فى موضع آخر من القرآن فقال :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة هود)

فإذا ما حدث لك من أمتك وقومك شىء من العناد والإصرار والمكابرة فاعلم أنك لست بدعاً من الرسل ؛ لأن كل رسول قد قابلته هذه الموجة الإلحادية من القوم الذين خاطبهم . وإذا كان كل رسول يأخذ حظه من البلاء بقدر ما فى رسالته من العلو فلابد أن تأخذ أنت ابتلاءات تساوى ابتلاءات الرسل جميعاً .

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟

﴿ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والطبع ـ كما قلنا ـ هوالختم ؛ لأن قلوبهم ممتلئة بالضلال ؛ لذلك يعلنون التكذيب للرسول . وقد طبع الله على قلوبهم لا قهراً منه ، ولكن لاستبطان الكفر وإخفائه فى قلوبهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

وهؤلاء الذين كذبوا الرسل ، وردوا منهج الله الذى أرسله على ألسنة رسله . كانت لهم عهود كثيرة . فما وفوا بعهد منها ، مثال ذلك : العهد الجامع لكل الخلق ، وهو العهد الذى أخذه الله على ذرية آدم من صلبه حين مسح الله على ظهر آدم ، وأخرج ذريته وقال :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

وقد يقف العقل فى أخذ مثل هذا العهد على الذرية الموجودة فى آدم ؛ لذلك نقول : إذا قال الله فقد صدق عَقِلْنا ذلك أو لم نعقله ، إنك لو نظرت إلى « آحاد البشر » ، أى إلى الأفراد الموجودين ، تجد نفسك وغيرك يجد نفسه نسلاً لآبائكم ، وهذا يدل على أن الإنسان وجد من حيوان منوى حى انتقل إلى بويضة حيّة من أمه فنشأ هذا الإنسان . ولو طرأ على الحيوان المنوى موت ، أو طرأ على البويضة موت امتنع الإنسال .

إذن فكل إنسان منا جزء من حياة أبيه ، وأبوه جزء من حياة والده ، ووالده جزء